قراءة سوسيولوجية لدور الوقف في نشر العلم والبحث العلمي بالمجتمع الجزائري خلال فتـرة الحكم العثماني

د.حنيـش مليـكة

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة

ملخص المداخلة:

يعتبر الوقف بالإضافة إلى اعتباره من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية ظاهرة اجتماعية حضارية تعبر عن الوجه التضامني للمجتمعات الإنسانية و عن الجانب الخير للإنسان ،وقد لعب الوقف على مر التاريخ دورا هاما في حياة المجتمعات الإسلامية باعتباره مصدر لتمويل العديد من المؤسسات المهمة في المجتمعات الإسلامية مثل بناء المساجد ،المدارس ،الزوايا ،المكتبات و إعانة طلبة العلم .والجزائر باعتبارها بلد مسلم تأثرت بهذه الظاهرة منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب العربي ،لكنها عرفت تطور كبير وملفت للانتباه في فترة الحكم العثماني بحيث أصبحت أوقاف الجزائر آنذاك من اغني أوقاف العالم الإسلامي، وذلك لعدة أسباب اقتصادية وسياسية وثقافية ودينية وهذا انعكس على الجانب العلمي والثقافي للمجتمع الجزائري بغض النظر عن المستوى العلمي ونوعيته، لان ذلك يتأثر بالسياق العام للعالم الإسلامي ككل .

وقد أصبح الوقف أبان هاته الفترة يحمل على عاتقه مهمة التعليم والمتعلمين لوحده ودون أي تدخل من الدولة،لذا فان هاته الفترة تعتبر مميزة وفريدة في تاريخ المجتمع الجزائري من حيث الدور الذي لعبته المؤسسات الوقفية في الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الجزائري، وعليه سنحاول من خلال هاته المداخلة التطرق إلى معالجة

هاته الظاهرة من منظور سوسيولوجي،وذلك من خلال التطرق إلى الأسباب التي أدت إلى الانتشار الكبير لهاته الظاهر خلال هذه الحقبة من تاريخ الجزائر، ومدى مساهمتها في انتشار التعليم والبحث العلمي والدور الذي لعبته المؤسسات الوقفية – ودون تدخل أو دعم من السلطة العثمانية– في بناء وتمويل المؤسسات التعليمية وطلبة العلم والعلماء وانعكاس ذلك على الحياة العلمية ككل، ومن هنا نقوم بطرح الأسئلة التالية:

– ما هي الأسباب التي أدت إلى الانتشار الواسع لظاهرة الوقف في المجتمع الجزائري خلال فترة الحكم العثماني؟

–والى أي مدى ساهمت هذه الظاهرة في انتشار العلم والبحث العلمي في المجتمع الجزائري خلال هاته الفترة ؟و فيما تجلت مظاهر تلك المساهمة ؟

Abstract :

This study deals with role of the endowment in the dissemination of science and scientific research in the Algerian society during the period of Ottoman in Algeria . So that was the only source of revenue endowments to finance educational institutions and science students and teachers. Despite giving up the Ottoman Empire for that task but it was noted during this period, the spread of education and educated people on a large scale because of the high number of endowments and it's effective role .

مقدمة:

رغم أن الدراسات التاريخية تشير إلى أن الوقف كظاهرة اجتماعية كان موجودة قبل الإسلام وذلك من خلال حبس العقار على دور العبادة ،كالمعابد ،و ألأديرة والكنائس، وما كان يرصد لها من عوائد العقار من اجل الإنفاق عليها وعلى القائمين عليها ،إلا أنها لم تكن متطورة بالشكل المعروف بعد مجيء الإسلام بحيث اتسع نطاق الانتفاع منها ولم يعد يقتصر على أماكن العبادة و إنما اتسع ليشمل الوقف على الفقراء والمحتاجين، الوقف على الإعتاق ،القرض الحسن ..الخ. وعليه فقد تعددت مجالات الوقف بتعدد مقاصده والتي كان أهمها الحفاظ على عقيدة الأمة وذلك من خلال الوقف على المساجد والمدارس وطلبة العلم،...الخ و عليه فقد لعب الوقف دورا مهما في الحياة الدينية والثقافية والعلمية للمجتمعات الإسلامية.

و المتتبع لتطور هذه الظاهرة في المجتمع الجزائري يجد أنها قد عرفت تطورا كبيرا في فترة الحكم العثماني للجزائر، حتى انه بسبب كثرتها كانت هناك بعض المؤسسات الوقفية مخصصة للإنفاق على فقراء مكة والمدينة و فقد كانت أحباس الجزائر اغني أحباس العالم الإسلامي آنذاك، وهذا انعكس على الحياة الثقافية والعلمية للمجتمع ككل ،كما كان المصدر الوحيد لتمويل العلم والبحث العلمي، لان الدولة العثمانية لم تكن تحمل مشروع حضاري ثقافي للمجتمع الجزائري وكان اهتمام العثمانيين منصبا على الجهاد البحري وما يجنيه من غنائم لذلك لم تعنى الدولة العثمانية بالمؤسسات التعليمية وطلبة العلم عدى بعض التبرعات الشخصية والفردية من قبل بعض الشخصيات في الحكم، لكن رغم ذلك انتشر التعليم على نطاق واسع وانتعشت حركة النسخ و التأليف.

قبل الحديث عن دور الوقف في انتشار العلم في المجتمع الجزائري خلال فترة الحكم العثماني نشير إلى أن أحكام وقوانين الوقف في المجتمع الجزائري خلال هاته الفترة وحتى اليوم مستمدة بالدرجة الأولى من الفقه المالكي، كونه المذهب المتبع من قبل المجتمع الجزائري و هو السائد في المغرب العربي على العموم رغم وجود المذهب الحنفي وهو المذهب المتعب من قبل العثمانيين بالجزائر، وهنا علينا تحديد مفهوم الوقف على الأقل في هذين المذهبين .كما نشير إلى أن فترة الحكم العثماني للجزائر هي الفترة التي دامت من سنة 1515 م إلى غاية سنة 1830م وهو تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر ،الذي بدخوله الجزائر دمر كل المؤسسات الوقفية بعدما استولى على ممتلكاتها بغية ،إبعاد المجتمع الجزائري عن دينه و هويته العربية الإسلامية .

أهداف البحث :

نهدف من خلال بحثنا هذا إلى إبراز دور الوقف كظاهرة اجتماعية عرفها المجتمع الجزائري في تمويل مؤسسات التعليم والبحث العلمي والحفاظ على الطابع التضامني للمجمع الجزائري ،وبالتالي نريد من خلال هذا البحث الرجوع الى التاريخ الاجتماعي للمجتمع الجزائري من اجل إعادة إحياء الظواهر الايجابية في المجتمع الجزائري والتشجيع عليها وإبراز أهميتها مثل ظاهرة الوقف، التي يمكن ان تكون مصدر دعم وتمويل للبحث العلمي كما هو الحال في دولة تركيا حاليا التي بها العديد من الجامعات الوقفية .

أهمية البحث :

تكمن أهمية البحث الذي هو عبارة عن عرض لظاهرة الوقف في المجتمع الجزائري خلال فترة الحكم العثماني من اجل إماطة اللثام عن بعض الظواهر الاجتماعية الايجابية في التاريخ الاجتماعي للمجتمع الجزائري ، والتي يمكن أن تكون مصدر الهام من خلال إعادة إحيائها والتي يمكن من خلالها حل بعض المشاكل الاجتماعية كمشكلة تمويل مؤسسات البحث العلمي، والتي تعتبر الميزانية المخصصة لها في الجزائر ضعيفة جدا مقارنة مع الدولة التي تعرف تقدم في البحث العلمي .

مفهوم الوقف:

رغم تعدد التعاريف اللغوية والفقهية لمفهوم الوقف إلا أنها تتفق في مفهومه العام وهنا لن نتعمق كثيرا في مفهوم الوقف وإنما سنقتصر على أهم التعاريف، خاصة في المذهب الحنفي والمذهب المالكي كون أن الوقف في المجتمع الجزائري كان يستمد أحكامه من هذين المذهبين ، فالمذهب الحنفي كان متبع من قبل العثمانيين والمذهب المالكي كان متبع من قبل أفراد المجتمع الجزائري.

مفهوم الوقف لغة :

"إن الوقف في أصل اللغة يراد به الحبس، و هو مصدر مشتق من وقف أي حبس "[1]و"نقول وقف الأرض على المساكين ،أي حبسها وجعلها في باب البر و الإحسان "[2]هذا من الناحية اللغوية من الناحية الفقهية نجد أن تعريفات الوقف تعددت بسبب تعدد المدارس الفقهية، لكن رغم ذلك نجد اغلب التعريفات تصب في نفس المعنى وهنا سنركز على المذهبين اللذين كانا سائدين خلال فترة الحكم العثماني وهما المذهب الحنفي الذي كان يتبعه العثمانيون والمذهب المالكي وهو المتبع من قبل أفراد المجتمع الجزائري عامة .

الوقف في المذهب الحنفي :

عندما نتحدث عن مفهوم الوقف في المذهب الحنفي يمكن الاستدلال مباشرة بقول الإمام أبو حنيفة النعمان الذي يعرفه بأنه "هو حبس العين على ملك الواقف والتصدق بالمنفعة "[3]و يمكن تلخيص أحكام المذهب الحنفي بالنسبة للوقف فيما

يلي :

"–أن الوقف يكون في الأصول والأعيان التي لا تنقطع بالاستغلال

–أن الوقف ينقل ملك العين الموقوف من الواقف الموقوف عليهم إلى ملك الله تعالى"[4]

تعريف المالكية:

"يؤثر المالكية إطلاق كلمة (الحبس) على كلمة الوقف، أحياناً في عرض أحكام الوقف واستعمال كلمة (الحُبُس) على الأوقاف في الغرب الإسلامي أكثر شيوعاً من كلمة (الأوقاف) ... " [5] "،وقد عرف الوقف في المدرسة الفقهية المالكية بما يوافق الرؤية الفقهية له من مراعاة حق التوقيت فيه للواقف وان يكون في النقول والعقار وغير ذلك من الأحكام لذا عرفه الشيخ الدرديري المالكي بأنه"[6] :"جعل منفعة مملوك ولو باجرة أو غلته لمستحق بصيغة مدة ما يراه المحبس مندوب "[7] ويمكن تلخيص أحكام الوقف في المذهب المالكي في النقاط التالية"

–أن الوقف يكون في الأعيان والمنافع

–أن يجوز للواقف اشتراط التأقيت فيه

–أن الوقف يخرج العين الموقوفة من ملك المالك أي من كل تصرف نحو البيع والهبة

–الوقف لا ينتقل بالميراث إن كان على التأبيد

–أن الوقف من التصرفات اللازمة بعد انعقاده لا يمكن الرجوع فيه

-أن الوقف لا يقطع حق الملكية و إنما يقطع حق التصرف فيما أوقف"[8]، و على العموم نلاحظ انه لا يوجد إخلاف بين المذهبين إلا في بعض الأحكام الجزئية ولكن الجميع يتفق على أن الوقف هو" وقف العين عن تمليكها مع التصدق بمنفعتها [9]

الوقف ودوره في الحياة العلمية للمجتمع الجزائري:

كما ذكرنا سابقا لقد لعب الوقف دورا مهما في الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الجزائري ،وكذلك في تضامن وتماسك أفراده ،وعليه فان الوقف كظاهرة اجتماعية كان يشكل مصدر تمويل للمؤسسات التعليمة وطلبة العلم والعلماء من جهة ويحافظ على اللحمة الاجتماعية للمجتمع ككل من جهة أخرى، لأنه يستمد أحكامه من الدين الإسلامي ،وهذا يعكس الأهمية التي كان يوليها المجتمع للقيم الدينية وحب الخير والتقرب إلى الله ،وكذلك المكانة التي كانت تحتلها فئة العلماء في المجتمع الجزائري ليس من قبل عامة أفراد المجتمع فحسب وحتى من قبل الحكام ورجال السلطة ويتجلى ذلك حسب المصادر التاريخية في انه كان يتم تقليد سلوكياتهم وتصرفاتهم من قبل بعض الأغنياء ورجال الحكم ،وذلك لما كانت تحظى به هذه الطبقة من وقار واحترام من قبل المجتمع كما أن كلمتهم كانت مسموعة من قبل عامة الشعب ولهم تأثير كبير فيه ،وهذا جعل الحكام العثمانيين يتقربون منهم ويغدقون عليهم العطاء والهدايا حتى يضمنوا ولائهم وبالتالي ولاء أفراد المجتمع ككل وقد كان أول اتصال بين العثمانيين والمجتمع الجزائري عن طريق الشيوخ والعلماء مثل الشيخ عبد الرحمان الثعالبي,وبالتالي فان فئة العلماء كانت حلقة وصل بين الحكام العثمانيين والعامة من المجتمع الجزائري بسبب مكانهم الاجتماعية بين الأهالي.

وهنا تجدر الإشارة إلا انه في ذلك الوقف لم يكن هناك فصل بين رجل الدين والعالم المتفقه في الأمور الدنيوية بالمفهوم الحالي للعالم ، ففي تلك الفترة كان على طالب العلم أن يتفقه في أمور الدين قبل الأمور الدنيوية.

أهم المؤسسات الوقفية في الجزائر خلال فترة الحكم العثماني :

ما يشير إلى تطور الأوقاف وكثرتها خلال هذه الفترة الزمنية هو أن الأملاك الوقفية كانت عبارة عن مؤسسات اقتصادية قائمة بذاتها يشرف عليها إداريين منهم الوكيل و ومساعدين للقاضي ،بالإضافة إلى الخدام وبالتالي فان الوثائق الخاصة بالأوقاف كانت تكتسي صفة الشرعية ،وكانت الأوقاف متنوعة بحيث كانت تشمل الأفران الدكاكين الفنادق الأراضي الزراعية، ومصانع النسيج وحتى الكتب العلمية التي كانت توقف سواء

من طرف الحكام أو الأهالي وهناك من كان يشتريها ويوقفها على طلبة العلم وهو يجهل حتى محتواها العلمي وكل ذلك كان تقربا إلى الله.

ولان التركيب الاجتماعي للمجتمع الجزائري كان يتكون من عدة فئات اجتماعية تكون أحيانا متباينة ثقافيا ومذهبيا ،رغم أن السكان المحليين كانوا يشكلون أغلبية المجتمع الجزائري فان المؤسسات الوقفية تعددت من حيث الفئات المانحة وكذلك الفئة التي يعود عليها نفع الوقف ،ومن بين الفئات البارزة في المجتمع نجد العثمانيون ، الأندلسيون والأشراف، والسكان المحليون لكن هذا لا يعني انه لا يوجد انفصال بين هاته الفئات وعدم تعاون بينها فهناك عوائد وقفية لفئة تذهب إلى فئة أخرى وهناك أوقاف مشترك بين عدة مؤسسات وقفية وهذا يدل على التضامن والتلاحم الاجتماعي بين هاته الفئات. و من أهم المؤسسات الوقفية التي كانت متواجدة آنذاك نجد.

مؤسسة الحرمين الشريفين :

" كان للحرمين الشريفين النصيب الأكبر من عناية المسلمين بعامة، ومن الخلفاء والسلاطين، والأمراء، وأغنياء المسلمين من الأهالي والمقيمين وغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية على مدار التاريخ الإسلامي، فتحقق لبلاد الحرمين الشريفين من المؤسسات العلمية، والخيرية ما لم يتحقق في بلاد الواقفين.."[10]

وتعتبر هذه من أهم المؤسسات من حيث عدد الأوقاف ،وقد قدرها بعض المؤرخون الفرنسيون عند دخول الجزائر بـ 155عقار ،74منزل 76مخزن ورغم أن عائداتها كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى فقراء مكة والمدينة إلا أنها كانت تنفق على 3مساجد حنفية في مدينة الجزائر ،وقد ساهمت هذه المؤسسة بنشر مدراس العلم وتدعيم الطلبة ليس في الجزائر فقط بل حتى في الحرمين الشريفين بفضل ما كانت تقدمه من أموال وعائدات الأوقاف .

أوقاف الجامع الكبير :

كانت عائدات أوقافه موجهة للإنفاق على مساجد المالكية ،ويلاحظ الباحثون أن عدد أوقافه انتقلت من حبس واحد سنة 1541الى 550حبس قبيل الاحتلال الفرنسي، وهذا نظرا لدوره التعليمي والثقافي في حياة المجتمع وكذلك لأن غالبية المجتمع هم من الأهالي الذين يتبعون المذهب المالكي .

أوقاف سبل الخيرات :

"تـذكر المصـادر أن مؤسسـها هـو شـعبان خوجـة سـنة 1583م وهـي مخصصـة للإنفـاق علـى مسـاجد الحنفيـة بمدينـة الجزائـر ،والـتي بلـغ عـددها 8مسـاجد وعـدد أوقافهـا 313حبسـا ...مـدخولها السـنوي 1800000فرنـك وهـذا راجـع علـى قلـة المسـاجد الحنفيـة وغـنى الأتـراك و الكراغلـة المنتسـبين إلى للمـذهب الحنفـي "[11]،" بفضـل مـا كـانوا يجنونـه مـن غنـائم مـن الجهـاد البحـري . تشـرف هـذه المؤسسـة علـى الأوقـاف الموجهـة للفقـراء والطلبـة والعلماء...كما أنها تدفع مرتبات حوالي 80 أستاذ ملحقين بالمساجد التابعة لها.

مؤسسة أوقاف أهل الأندلس:

نشـير هنـا إلى إن فئـة أهـل الأنـدلس هـي فئـة الإفـراد الفـارين مـن الاضـطهاد الصـليبي ومحـاكم التفتـيش بعـد سـقوط الأنـدلس ،بحـث هـاجرو مسـاكنهم وأراضـيهم واسـتقروا بالمـدن السـاحلية للجزائـر مثـل مدينـة شرشـال، وتلمسـان وانـدمجوا تـدريجيا في المجتمـع الجزائري،وكـان أهـل الأنـدلس يملكـون ثـروات ضـخمة نتيجـة نشـاطهم في الصـناعة و التجـارة ،وقـد قـاموا بوقـف بعـض مـن ممتلكـاتهم لصـالح المهـاجرين الفقـراء مـن أشـهر أوقـاف الخاصـة بهـم هو جامع الأندلس والزاوية الملحقة به.

بالإضـافة إلى هـذه المؤسسـات نجـد مؤسسـات أوقـاف خاصـة بالإشـراف هـذه الفئـات الـتي كانـت تحظـى بتعاطف الحكام الأتراك بسبب نسبهم الشريف و أخلاقهم العالية.

المؤسسات التـعليـمية الممولة من قبل الأوقاف:

لقـد أشـرفت المؤسسـات الوقفيـة علـى العديـد مـن المؤسسـات التعليميـة مـن حيـث البنـاء والصـيانة و إيـواء طلبـة العلـم و إطعـامهم وكـذلك الإنفـاق علـى أجـور العلمـاء والمدرسـين،و نجـد أهـم المؤسسـات التعليمـة الـتي كانـت موجودة في المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة والممولة من المؤسسات الوقفية ما يلي:

الكتاب:

و يسـمى أيضـا بالمسـيد وهـو تصـغير لكلمـة مسـجد و يسـمى في ألأريـاف بالشـريعة لأنـه يـدرس الشـريعة و يعتـبر أول مرحلـة يمـر بهـا طالـب العلـم خـلال السـنوات الأولى مـن حياتـه، و بالتـالي كـان بمثابـة المدرسـة الابتدائيـة في وقتنـا الحـالي "وكانـت هـذه المؤسسـة التعليميـة منتشـرة في كامـل الـبلاد الأمـر الـذي أدهـش الفرنسـيين عنـد احـتلالهم الجزائـر إذكتـب الجنـرال دومـاس تقريـرا لـه يقـول :إن التعلـيم الابتـدائي في الجزائـر كـان منتشـرا أكثـر ممـا يتصـوره الإنسـان" [12] وقـد تمثلـت مهـام هـذه المؤسسـة التعليميـة في تعلـيم القـراءة و الكتابـة وحفـظ القـران الكـريم وبعـض

مبـادئ لحسـاب. يقضـي الأطفـال بالكتـاب مـن ثـلاث إلى أربـع سـنوات ،وهنـاك مـن يبقـون فيهـا أو يلتحقـون بالمدرسة في الحواضر أو الزوايا في الأرياف لحفظ القران والفقه في الدين على أيدي علماء من قضاة ومفتيين .

المسجد:

لقـد كانـت وظيفـة المسـجد بالإضـافة إلى دور الصـلاة وإلقـاء خطـب الجمعـة ،يقـوم بوظيفـة التعلـيم وتحفـيظ القـران ،"والملاحـظ علـى حواضـر الجزائـر خـلال العهـد العثمـاني هـو كثـرة مسـاجدها التعليميـة بحيـث انفـردت كـل مدينـة بجامعهـا الأعظـم الـذي يمثـل مهـدا للتعلـيم كالجـامع العظـيم بقسـنطينة جـامع بجايـة والجـامع الكبـير بـالجزائر العاصـمة الـذي كـان منـبرا للمناضـرات بـين العلمـاء"[13]،وقـد أحصـى المؤرخـون ،بمدينـة الجزائـر وحـدها 109مسـجد صـغير و13 مسـجد كبـير و75مسـجد بمدينـة قسـنطينة و60 مسـجد بمدينـة تلمسـان ،وهـذا يشـير إلى الانتشـار الكبير للمساجد لما كانت تؤديه من دور علمي وحضاري في ذلك الوقت.

الزوايا:

الزاويـة هـي مؤسسـة تعليمـة دينيـة متعـددة الوظـائف وهـذا لأنهـا كانـت تنتشـر بالأريـاف الـتي كانـت تفتقـر إلى المؤسسـات التعليميـة الثقافيـة، الـتي كانـت الزرايـة تنـوب عنهـا، بحيـث قامـت بـدور المسـجد والمدرسـة في نفـس الوقـت فكانـت " مقـر للعبـادة والدراسـة كتـدريس علـوم الـدين والفقـه ومبـادئ القـراءة والكتابـة بالإضـافة إلى كونهـا مـؤوى لطلبـة العلـم وعـابري السـيل "[14]. تخـرج علمـاء الجزائـر ونخبـة المجتمـع في العهـد العثمـاني مـن هـذه المؤسسـة التعليميـة نـذكر مـنهم أبـو رأس الناصـري، سـعيد قـدورة، الأمـير عبـد القـادر ،محمـد بـن علـي سنوسـي ...الخ . و عليـه فقـد كانـت مقصـد للعديـد مـن طلبـة العلـم تخـرج منهـا العديـد مـن علمـاء وقضـاة الـبلاد كمـا كانـت مخـزن للكثـير مـن الكتب والمخطوطات.

المـدرسـة:

لقـد كـان ظهـور المدرسـة في المجتمـع الجزائـري كمؤسسـة اجتماعيـة تعليميـة قبـل التواجـد العثمـاني بـالجزائر ،حيـث ظهـرت في عهـد الموحـدين مـن اجـل تخفيـف العبـئ علـى المسـاجد وعليـه فـان المدرسـة كانـت تقـوم بـنفس المهمـة التعليمـة الـتي كـان يقـوم بهـا المسـجد إذ لا يوجـد بينهمـا اخـتلاف كبـير وكانـت تبـني في الغالـب قـرب المسـاجد ،وقـد سـاهم أفـراد المجتمـع في الجزائـر خـلال التواجـد العثمـاني في وقـف أمـوالهم لتعلـيم أبنـائهم ،"كـان نتاجهـا بنـاء العديـد مـن المـدارس التعليميـة عـبر القطـر كلـه حـتى لا تكـاد تخلـو منطقـة مـن مدرسـة للتعلـيم ، وهـذا مـا جعـل جميـع الـذين زاروا الجزائـر خـلال العهـد العثمـاني ينبهـرون مـن كثـرة المـدارس بهـا وانتشـار التعلـيم ونـدرة الأميـة بـين السـكان

"[15]ومـن المـدارس الـتي ذاع صـيتها آنـذاك نجـد المدرسـة الكتانيـة في الشـرق الجزائـري ،مدرسـة الأندلسـيين ومدرسـة شـيخ الـبلاد في العاصـمة ،وفي الغـرب نجـد كـذلك مدرسـة الخنقـة ومدرسـة مازونـة وفي هـذا الصـدد فقـد تحـدث الجـامعي الفاسـي وهـو يصـف المـدارس بمدينـة الجزائـر "...لقـد كـان بهـذه الحضـارة نحـو مائـة مكتـب ملـيء بـالأولاد ،حيـث أن المحـل الـذي لاتسـع لـلأولاد يجعلـون فيـه سـدة يصـعدون عليـه الـدرج يتعلمـون القـراءة والكتابـة ويحفظـون القـرآن العظـيم ،وحفاظـه كثيرين،والـدروس العليـا تلقـى في المسـاجد والزوايـا العديـدة بالخصـوص الجـامع الأعظـم كـان فيه تسعة عشر أستاذا "[16]

بالإضـافة إلى هـذه المؤسسـات التعلميـة نجـد مؤسسـات تعليميـة أخـرى مثـل الربـاط الـتي كانـت تشـبه الزوايـا لكـن كانـت مهمتهـا الأساسـية هـي الجهـاد والتحـريض عليـه بالإضـافة الى مهمتهـا التعليمـة للمـرابطين والحـامين عـن حـدود الـوطن كمـا نجـد كـذلك المعمـرات والـتي كانـت تنتشـر بصـفة خاصـة بمنطقـة القبائـل وهـي تشـبه الكتاتيـب إلا أنها تضم عدة فئات عمرية ولا تقتصر على الأطفال الصغار .

المكتبات:

لا يمكـن أن نتحـدث عـن المؤسسـات التعليمـة دون الحـديث عـن المكتبـات كونهـا عنصـر مهـم وأساسـي في العمليـة التعليميـة والبحـث العلمـي، وهنـا نجـد أن الوقـف لم يتوقـف علـى بنـاء المؤسسـات التعليميـة أو الإنفـاق علـى طلبـة العلـم والعلمـاء و إنمـا شمـل الوقـف كـذلك ،وقـف الكتـب والمخطوطـات علـى المكتبـات لطلبـة العلـم ،الـتي كانـت منتشـرة بكثـرة في الجزائـر خـلال فـترة الحكـم العثمـاني بـالجزائر ، وعليـه "ولتسـهيل عمـل المؤسسـات السـابقة ضـمنت الجزائـر عـددا هامـا مـن المكتبـات الـتي تحتـوي علـى العديـد مـن الكتـب الـتي كانـت أمـا إنتـاج محلـي عـن طريـق التـأليف أو النسـخ أو وصـلت الجزائـر عـن طريـق مصـر والحجـاز والأنـدلس "[17]وكـذلك مـن تركيـا والـتي جلبهـا الأتـراك معهـم عـن طريـق المفـاتي والقضـاة الأحنـاف ،وقـد كانـت المكتبـات مقسـمة إلى قسـمين المكتبـات العامـة والمكتبـات الخاصـة وكانـت المكتبـات العامـة ملحقـة بجـوار المـدارس والمسـاجد والزوايـا والكتـب الـتي تحويهـا هـي موقوفـة علـى طلبـة العلـم والعلمـاء و مـن المكتبـات المعروفـة في ذلـك العصـر هـو مكتبـة الجـامع الكبـير في الجزائـر العاصـمة والمدرسـة الكتانيـة في قسـنطينة الـتي كـان يوجـد بهـا حسـب بعـض المـؤرخين 17مكتبـة أمـا المكتبـات الخاصـة فهـي خاصـة بالعـائلات المشـهورة في المجـال العلمـي مثـل مكتبـة عائلـة الفكـون الـتي تـذكر المصـادر أنهـا كانـت تحتـوي علـى 2500مجلـد كمـا نجـد في الغـرب الجزائـري، مكتبـة أبـو رأس الناصـري وهـي عبـارة عـن وقـف مـن احـد بايـات وهـران وسميت بمكتبة المذاهب الأربعة .

"وغـنى مكتبـات الجزائـر كـان نتيجـة انتشـار حركـة التـأليف والنسـخ ...بالإضـافة إلي الكتـب الـتي كانـت تصـل إليها عن طريق الحجاج والعلماء الرحالة"[18]

"وهكـذا تتضـح أهميـة مؤسسـة الوقـف في الجزائـر خـلال العهـد العثمـاني فقـد كانـت تـؤدي وظـائف عديـدة أهمهـا ...خدمـة الـدين والتعلـيم كمـا كانـت عنوانـا علـى التضـامن الاجتمـاعي "[19]،لكـن للأسـف كـان مصـير هـذه المؤسسـات الوقفيـة والتعليميـة هـو التـدمير ومحاولـة القضـاء عليهـا بكـل الطـرق مـن اجـل تجهيـل المجتمـع الجزائـري وكذلك فصله عن دينه وانتمائه العربي الإسلامي.

مـن خـلال عرضـنا الموجز لظـاهرة الوقـف في الجزائـر خـلال العهـد العثمـاني يمكـن أن نلاحـظ بوضـوح مـدى التضـامن الاجتمـاعي الـذي كـان سـائدا خـلال تلـك الفـترة مـن خـلال مسـاهمة كـل فئـات المجتمـع الجزائـري في الوقـف علـى التعلـيم وهـذا يـبن أهميـة العلـم كقيمـة اجتماعيـة ودينيـة ،كـون أن التعلـيم ارتـبط في العـالم الإسـلامي بالـدين فعلـى رجـل العلـم آنـذاك آن يبـدأ بحفـظ القـران الكـريم ثم التفسـير لينتقـل بعـد ذلـك علـى العلـوم العقليـة الأخـرى .وعليـه فقـد اسـتمد التعلـيم قدسـيته لإرتباطـه بالـدين الإسـلامي، ولأن الوقـف كـذلك يسـتمد وجـوده مـن الـدين الإسـلامي فـان ظـاهرة الوقـف شـكلت دعامـة حقيقـة للمؤسسـات التعليميـة والمتعلمـين ، ولكـن بتخريـب المسـتعمر الفرنسـي للمؤسسات الوقفية فقدت هذه المؤسسات أهميتها في المجتمع الجزائري .

خـاتمـة:

مـن خـلال كـل مـا تطرقنـا لـه خـلال هـذه المداخلـة يمكـن القـول أن ظـاهرة الوقـف في المجتمـع الجزائـري خـلال فـترة الحكـم العثمـاني بـالجزائر شـكلت دعامـة أساسـية ومهمـة للتعلـيم والبحـث العلمـي في الجزائـر رغـم أن المسـتوى العلمـي خـلال هـذه الفـترة تميـز بـالتقهقر علـى غـرار بـاقي الـدول الإسـلامية ،إلا انـه سـاهم في نشـر العلـم وظهـور طبقـة مـن العلمـاء والمثقفـين ، و هاتـه التجـارب الحيـة مـن تـاريخ المجتمـع الجزائـري تحتـاج إلى إحيـاء ظـاهرة الأوقـاف وتوظيفها في خدمة العلم والدين وكذلك تقوية التضامن الاجتماعي.

قائمة المراجع

[1]ابن منظور ،لسان العرب ،دار إحياء التراث العربي ،1979،ص76.
[2]عبد القادر بن عزوز،فقه استثمار الوقف وتمويله في الاستلام –دراسة تطبيقية عن الوقف الجزائري-رسالة دكتوراه غير منشورة ،كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر ،سنة 2003-2004،ص20.
[3]ابن الهمام كمال الدين، شرح فتح القدير ،ط1دار الكتب العلمية ،2003ص19
[4] وهبة الزحلي ،الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي ،دار الفكر المعاصر ،السنة1987 ،ص170 نقلا عن عبد القادر بن عزوز مرجع سابق ص23
[5]عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سلمان،الوقف مفهومه ومقاصده،ندوة المكتبات الوقفية في العربية السعودية ،ص667.
[6]عبد القادر بن عزوز،مرجع سابق ص20.
[7]الدردير ،اقرب المسالك مكتبة، رحاب ،الجزائر ،1987،ص165نقلا عن عبد القادر بن عزوز،مرجع سابق ص20
[8] الشيخ النفراوي ،الفواكه الدواني ،مطبع مصطفى بابلي الحلبي ،مصر،1955،ص225.نقلا عن عبد القادر بن عزوز مرجع سابق ص21.
9 حسن عبد الغني ابو غدة ، "الوقف ودوره ي التنمية الثقافية "مجلة الشريعة والفنون(العدد 22 يناير 2005ص34)
[10]عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سلمان،الوقف مفهومه ومقاصده،ندوة المكتبات الوقفية في العربية السعودية ،ص684.

11 شدري معمر،العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر1671-1830 ،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البويرة ،2006 ،ص54
12نفس المرجع ،ص54.
13نفس المرجع، ص.55
14زكية منزل غرابة ،دور الوقف في نشر لعلم خلال التواجد العثماني بالجزائر ،awqafshj.gov.ae/ar/download
15اشرف صالح محمد السيد ،المراكز الثقافية في دار السلطان-الجزائر- أواخر العصر التركي ،اراماباك مجلة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا www.amarabac.com
16 شدري معمر ،مرجع سابق ،ص 64.
17نفس المرجع،ص 68.
18ابو القاسم سعد الله ،تاريخ لجزائر الثقافي 1500-1830 المجلد الأول،دار الغرب الإسلامي ،2005،ص244.